مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية

فصلية علمية محكمة تصدر عن مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت

التفسير المقاصدي للقرآن عند الزمخشري في الكشافً

أ.د. عودة عبد الله (باحث رئيس)
جامعة النجاح الوطنية، فلسطين
طلال عوض الله أبو عصبة (باحث مشارك)
باحث في الدراسات القرآنية

مجلس
النشر العلمي

جامعة الكويت
KUWAIT UNIVERSITY

ISSN: 1029-8908

العدد ١٣٦ - السنة ٣٩

شعبان: ١٤٤٥هـ - مارس ٢٠٢٤م

البحث الثاني

التفسير المقاصدي للقرآن عند الزمخشري في الكشاف

أ.د. عودة عبد عودة عبد اللّه (باحث رئيس)
أستاذ التفسير بقسم أصول الدين
جامعة النجاح الوطنية، فلسطين

طلال عوض اللّه أبو عصبة (باحث مشارك)
باحث في الدراسات القرآنية

للاستشهاد :

عبد الله، عودة عبد، وأبو عصبة، طلال عوض. (٢٠٢٤). التفسير المقاصدي للقرآن عند الزمخشري في الكشاف. *مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية*، ٣٩ (١٣٦)، ٤٩-٨٤.

To cite :

Abdullah, O. A., & Abo Asbah, T. A. (2024). Al-tafsir al-Maqsidi of al-Zamakhshari in Tafsir Al-Kashaf. *Journal of Sharia and Islamic Studies*, *39* (136), 49- 84.

Doi: 10.34120/0378-039-136-003

التفسير المقاصدي للقرآن عند الزمخشري في الكشاف

أ.د. عودة عبد عودة عبد الله *
طلال عوض الله أبو عصبة **

تاريخ الاستلام: نوفمبر ٢٠٢١م تاريخ الإجازة: مارس ٢٠٢٢م

ملخص البحث

فكرة البحث الرئيسة هي تسليط الضوء على التفسير المقاصدي عند واحد من أبرز أعلام التفسير البياني للقرآن الكريم، وهو الزمخشري صاحب الكشّاف، و**تكمن أهمية** البحث في توجيه الباحثين وحثهم على دراسة كتب التفسير القرآني، في إطار منهج معاصر من مناهج التفسير القرآني، يتمثل في السعي نحو بيان المقاصد القرآنية، وإبراز الفهم المقاصدي، من خلال النظر في كتب التفسير القرآني، القديمة منها والمعاصرة، وتتمثل **إشكالية البحث** في الكشف عن جوانب التفسير المقاصدي عند الزمخشري في الكشاف. **ويهدف البحث** إلى بيان مفهوم التفسير المقاصدي، وتوضيح منهج الزمخشري في بيان المقاصد القرآنية، وإبراز ملامح التفسير المقاصدي في تفسيره، واقتضت طبيعة البحث أن يسلك الباحثان **المنهج** الوصفي، والتحليلي، والاستنباطي، وذلك من خلال الوقوف على تفسير الزمخشري لبعض الآيات القرآنية، واستنتاج منهجه في الكشف عن مقاصد القرآن، وسمات هذا المنهج. **ومن أبرز النتائج التي توصل الباحثان إليها:** أن الزمخشري عمد

(*) أ.د.عودة عبد عودة عبد الله: يحمل شهادة الدكتوراه في التفسير والدراسات القرآنية من الجامعة الإسلامية العالمية – ماليزيا ، عام ٢٠٠٣، والماجستير في التفسير والدراسات القرآنية من جامعة آل البيت الأردن ، عام ١٩٩٩، والبكالوريوس في أصول الدين من الجامعة الأردنية ، عام ١٩٩٦م، يعمل رئيسا لقسم أصول الدين في كلية الشريعة بجامعة النجاح الوطنية، منذ عام ٢٠٠٧، له كتاب مطبوع ، وأكثر من خمسين بحثاً علمياً منشوراً في مجلات علمية محكمة، ومشارك في إعداد المناهج المدرسية.
الاهتمامات البحثية: التفسير ومناهج المفسرين، الدراسات القرآنية، الدراسات الاستشراقية والحداثية.
البريد الإلكتروني: odeh74a@najah.ed

(**) طلال عوض الله أحمد أبو عصبة: في مرحلة إعداد درجة الدكتوراه في أصول الدين ـجامعة النجاح الوطنية بنابلس منذ ٢٠١٩م. حاصل على ماجستير أصول الدين ـجامعة النجاح الوطنية بنابلس ٢٠١٩م . وبكالوريوس في أصول الدين ـ جامعة النجاح الوطنية ٢٠١٥م. يعمل مدرسا للتربية الإسلامية في مدرسة بكالوريا الرواد نابلس ـ فلسطين منذ العام ٢٠١٦م وحتى الآن.
الاهتمامات البحثية: التفسير والدراسات القرآنية. **البريد الإلكتروني:** talal@pioneers.edu.ps

حقوق الطبع والنشر محفوظة – مجلس النشر العلمي – جامعة الكويت

إلى الكشف عن المقاصد القرآنية بوسائل مختلفة، وأهمها الميدان الذي برع فيه، وهو البلاغة والبيان، **لذلك يرى الباحثان** ضرورة الاهتمام بهذا اللون من التفسير، وعمل دراسات متخصصة في البحث عن المقاصد القرآنية عند الزمخشري مثل (دور الإعجاز البلاغي في الكشف عن المقصد القرآني)، وعدم الاقتصار في البحث المقاصدي على آيات الأحكام، ومحاولة الكشف عن المقاصد القرآنية في آيات القصص، والعقيدة، والأخلاق، والربط بين التفسير المقاصدي وألوان التفسير الأخرى ضمن أبحاث متخصصة. إضافة إلى عمل دراسات مشابهة على كتب التفسير الأخرى.

الكلمات المفتاحية: التفسير، المقاصد، الزمخشري، الكشاف

Al-tafsir al-Maqsidi of al-Zamakhshari in Tafsir Al-Kashaf

Prof. Odeh Abdullah *
Talal Awad ALLAH Abo Asbah **

Research received date : Nov 2021 Research authorized Date: Mar 2022

Abstract:

The main idea of the research is to shed light on the intentional interpretation of one of the most prominent figures of interpretation of the Holy Qur'an, namely Al-Zamakhshari, the author of Al-Kashshaf. **The importance of the research** lies in directing and urging researchers to study the books of Qur'anic interpretation within the framework of explaining the Qur'anic objectives, through the Al-Kashshaf interpretation model presented in this research. **The statement problem** is to reveal the aspects of the interpretation of objectives according to Al-Zamakhshari in Al-Kashshaf. **The research aims** to clarify the concept of intentional interpretation, clarify Al-Zamakhshari's approach in explaining Qur'anic objectives, and highlight the features of intentional interpretation in its interpretation. **Descriptive, analytical, and deductive method** was adopted according to the nature of the research . The most findings that reached were : Al-Zamakhshari sought to uncover the Qur'anic objectives through various means, the most important of which was the field in which he excelled, which was eloquence and

(*) Professor of Interpretation, Department of Fundamentals of Religion, An-Najah National University, Palestine. Email: odeh74a@najah.ed
(**) Researcher. Email: talal@pioneers.edu.ps

Published by the Academic Publication Council of Kuwait University. All Rights Reserved

rhetoric . **Therefore,** the necessity of paying attention to this type of interpretation and conducting specialized studies in researching the Qur'anic objectives according to Al-Zamakhshari, such as (the role of rhetorical miracles in revealing the Qur'anic intention), not limiting the research of objectives to the verses of rulings, and trying to reveal the Qur'anic objectives in the verses of stories , doctrine. , ethics, and the link between the interpretation of objectives and other forms of interpretation within specialized research **were recommended .**

Keywords: Interpretation, Maqasid, al-Zamakhshari, Al-Kashaf

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

فإن من أجلّ العلوم وأشرفها علم تفسير القرآن الكريم؛ لارتباطه بكتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي أُنزل إلينا لتحقيق مقاصد جليلة فيها سعادة البشرية في الدنيا والآخرة.

وقد تعددت اتجاهات العلماء قديماً وحديثاً في الكشف عن أسرار القرآن الكريم وحِكمه وأحكامه، بين من يفسّر القرآن الكريم بالمأثور، ومن يفسره بالرأي، سواء من خلال الاتجاه البياني، أو الفقهي، أو العقدي، وغيرها من الاتجاهات، وقد برز اهتمام العلماء المعاصرين بلون جديد من ألوان التفسير أطلقوا عليه التفسير المقاصدي، وهو تفسير يهدف إلى الكشف عن الغاية الربانية من الخطاب القرآني، سواء من خلال إبراز المقاصد العامة للقرآن الكريم، أو مقاصد السورة القرآنية، أو المقطع القرآني، أو الآية، أو الكلمة، أو الفاصلة، وغيرها. وآيات القرآن في الكثير من المواطن تتحدث عن مقاصدها، وفي مواطن أخرى تحتاج لإعمال عقل المفسر للكشف عنها.

إن الاهتمام بالفهم المقاصدي للقرآن الكريم لم يكن وليد العصر الذي نعيش فيه، وإن كان ظهور المصطلح معاصراً، والناظر في تفاسير المتقدمين يجد هذا الفهم المقاصدي حاضراً لديهم على تفاوت بين مقل ومكثر، وقد كان جلّ اهتمام الباحثين في التفسير المقاصدي الكشف عنه في تفاسير المعاصرين، لذلك اخترت في هذا البحث الوقوف مع تفسير لأحد المتقدمين، وهو الإمام الزمخشري؛ لبيان دوره في الكشف عن مقاصد القرآن الكريم، واهتمامه بهذا اللون من التفسير.

الدراسات السابقة:

بعد البحث والاطلاع وقع بين يدي الباحثيْن عشرات الدراسات السابقة حول التفسير المقاصدي للقرآن الكريم، وقد كان فيها فائدة كبيرة، ولم يكن من هذه الدراسات دراسة متخصصة في التفسير المقاصدي عند الزمخشري، ومن هذه الدراسات:

١- الاتجاه المقاصدي في تفسير ابن عاشور[١].

٢- التفسير المقاصدي: تأصيل وتطبيق[٢].

٣- الإدراك المقاصدي محدد من محددات تدبر القرآن الكريم[٣].

٤- التفسير المقاصدي إشكالية التعريف والخصائص[٤].

٥- الجذور التاريخية للتفسير المقاصدي للقرآن الكريم[٥].

والملحوظ من هذه الدراسات أنها جاءت لتوضح مفهوم التفسير المقاصدي وجذوره التاريخية، أو جاءت لبيان التفسير المقاصدي لدى مفسر من المفسرين، أو لتُجلّي المقاصد حول موضوع من الموضوعات القرآنية، ولم يكن من بينها دراسة تتناول معالم هذا التفسير عند الزمخشري في الكشّاف، وهذا ما تميّزت به هذه الدراسة.

أهمية الدراسة:

تنبع أهمية الدراسة من أهمية الكتاب الذي تبحث فيه؛ فهي تبحث في تفسير كتاب الله تعالى، وتبيّن شيئاً من مقاصده من خلال تفسير «الكشاف»، وهذه الدراسة من الأهمية بمكان؛ لأنها توجّه الباحثين لقراءة القرآن الكريم وكتب المفسّرين في إطار المقاصد القرآنية، وعدم تجريد النصوص عن مقاصدها، وإبراز الفهم المقاصدي في كتب المفسرين لكلام رب العالمين.

مشكلة الدراسة:

تتلخص مشكلة الدراسة في الأسئلة الآتية:

١- ما مفهوم التفسير المقاصدي؟

٢- ما منهج الزمخشري في بيان المقاصد القرآنية؟

---

(١) المعهد العالمي للفكر الإسلامي، **الاتجاه المقاصدي في تفسير ابن عاشور**، مج٦، عدد:٢٣، رشواني، سامر عبد الرحمن، ٢٠٠٠م.

(٢) مجلة الدراسات الإسلامية، جامعة الملك سعود، كلية التربية، **التفسير المقاصدي: تأصيل وتطبيق**، مج:٢٨، عدد ١، الزهراني، مشرف بن أحمد جمعان، ، ٢٠١٦م.

(٣) المنتار: **الإدراك المقاصدي محدد من محددات تدبر القرآن الكريم**.

(٤) المخلافي والأطرش: «**التفسير المقاصدي إشكالية التعريف والخصائص**» قرآنيكا مجلة عالمية لبحوث القرآن.

(٥) الأطرش وقائد: «**الجذور التاريخية للتفسير المقاصدي للقرآن الكريم**» مجلة الإسلام في آسيا.

٣- ما ملامح التفسير المقاصدي في الكشّاف؟

أهداف الدراسة:

١- بيان مفهوم التفسير المقاصدي.

٢- توضيح منهج الزمخشري في بيان المقاصد القرآنية في "الكشاف".

٣- بيان ملامح التفسير المقاصدي في الكشّاف.

منهج الدراسة:

اتبع الباحثان في هذه الدراسة المنهج الوصفي، التحليلي، الاستنباطي، وذلك من خلال الوقوف على تفسير الزمخشري للكثير من الآيات القرآنية في مختلف الموضوعات، واستنتج الباحثان منهج الزمخشري في الكشف عن مقاصد القرآن، وسمات هذا المنهج في تفسيره.

خطة الدراسة:

قسمت هذه الدراسة إلى مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة. على النحو الآتي:

المبحث الأول: المقصود بالتفسير المقاصدي للقرآن الكريم

المبحث الثاني: منهج الزمخشري في بيان المقاصد القرآنية في الكشاف

المبحث الثالث: ملامح التفسير المقاصدي عند الزمخشري في الكشّاف

وختاما نسأل الله العلي العظيم أن يجعل هذا العمل خالصاً متقبلاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به المسلمين، وأن يكون لنا ذخراً يوم الدين.

المبحث الأول
المقصود بالتفسير المقاصدي للقرآن الكريم
المطلب الأول
بيان معنى المقاصد

أولاً: المقاصد في اللغة

جمع مقصد، وهي من الفعل (قَصَدَ) يقصد قَصْدًا وَمَقْصَداً، ويطلق عند أهل اللغة على معان عدة، منها: إتيان الشيء وأمّه، واكتناز في الشيء، والناقة القصيد المتلئة لحماً. والقَصْد استقامة الطريق. والقَصْد العدل، والاعتماد، والأمّ، والتوجه. والقَصْد في الأمور الوسط بين طرفين[1].

وأشهر المعاني عند إطلاق لفظ القصد: التوجه، وطلب الشيء وإتيانه. وينقل الزبيدي عن سر الصناعة لابن جني أن أصل قصد وموقعها من كلام العرب: "الاعتِزامُ والتَّوَجُّه والنُّهُودُ والنُّهوضُ نحوَ الشيْءِ"[2].

ثانيا: المقاصد في الاصطلاح

لا بد هنا من التفريق بين مقاصد الشريعة بالمعنى الأصولي، والمقاصد القرآنية، فمقاصد الشريعة ذكرها الأقدمون في كتبهم واهتموا بإبرازها دون الوقوف على تعريف جامع ومحدد للمصطلح، وقد ورد ذلك عند الغزالي فهو يقول: "وَمَقْصُودُ الشرْعِ مِنْ الْخَلْقِ خَمْسَةٌ: وَهُوَ أَنْ يَحْفَظَ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَنَفْسَهُمْ وَعَقْلَهُمْ وَنَسْلَهُمْ وَمَالَهُمْ، فَكُلُّ مَا يَتَضَمَّنُ حِفْظَ هَذِهِ الْأُصُولِ الْخَمْسَةِ فَهُوَ مَصْلَحَةٌ، وَكُلُّ مَا يُفَوِّتُ هَذِهِ الْأُصُولَ فَهُوَ مَفْسَدَةٌ وَدَفْعُهَا مَصْلَحَةٌ"[3]. وقال الآمدي: " الْمَقْصُودُ مِنْ شَرْعِ الْحُكْمِ إمَّا جَلْبُ مَصْلَحَةٍ أَوْ دَفْعُ مَضَرَّةٍ أَوْ مَجْمُوعُ الْأَمْرَيْنِ بِالنِّسْبَةِ إلَى الْعَبْدِ"[4]. وفي الموافقات للشاطبي بين أن المقصود الشرعي من

(١) ينظر: الراغب الأصفهاني: **المفردات**، (٦٧٢). الزمخشري: **أساس البلاغة**، (٢/ ٨٠- ٨١). ابن منظور: **لسان العرب**، (٣/ ٣٥٣). الفيومي: **المصباح المنير**، (٢/ ٥٠٤). الفيروزآبادي: **القاموس المحيط**، (٣١٠). الزَّبيدي: **تاج العروس**، (٩/ ٣٦-٣٧).

(٢) المرجع السابق، (٩/ ٣٦).

(٣) الغزالي: **المستصفى**، (١٧٤).

(٤) الآمدي: **الإحكام في أصول الأحكام**، (٣/ ٢٧١).

الخطاب تفهيم المكلفين ما لهم وما عليهم، مما فيه مصلحة دنياهم وآخرتهم، وقصد الشارع من وضع الشريعة أن يحفظ مقاصد الخلق، وهي الضرورية والحاجية والتحسينية[١].

يُلاحَظ مما سبق أن العلماء الأوائل لم يكن لديهم تعريفٌ جامعٌ مانعٌ للمقاصد، وجاء تحديد المصطلح في كتب المتأخرين، فعرّفها ابن عاشور بأنها: "المعاني والحِكم الملحوظة للشارع في جميع أصول التشريع أو معظمها، بحيث لا تختصُّ ملاحظتها بالكون في نوع خاصٍّ من أحكام الشريعة"[٢].

وعرّفها الريسوني بقوله: "إن مقاصد الشريعة هي الغايات التي وضعت الشريعة لأجل تحقيقها، لمصلحة العباد"[٣].

أمّا الفاسي فعرف مقاصد الشريعة بقوله: "الغاية منها، والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها"[٤].

وهنا لا بد من تسجيل الملحوظات الآتية:

الأولى: أن مقاصد الشريعة متعلقة بالغايات التي شرع الله من أجلها الأحكام وما تحققه من جلب مصالح، وما تدفعه من مفاسد.

الثانية: أن مقاصد الشريعة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالأحكام التشريعية التي وضعها الشارع الحكيم، وهذا ما يفهمه الباحثان من تعريف ابن عاشور السابق.

الثالثة: أن مقاصد الشريعة مستوحاة من كل مصادر التشريع دون الاقتصار على القرآن الكريم.

أما المقاصد القرآنية فبعد النظر في الكثير من الدراسات المقاصدية في التفسير، لم نجد تعريفاً لها عند القدماء، وإن تطرق لها البعض دون قصد التعريف، فتحدث الغزالي عن انحصار مقاصد سور القرآن وآياته في ستة أنواع[٥]. وتحدث العز بن عبد السلام عن

(١) ينظر: الشاطبي: **الموافقات**، (٤/ ١٤٠).
(٢) ابن عاشور: **مقاصد الشريعة الإسلامية**، (٢/ ١٢١)
(٣) **نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي**، الريسوني، أحمد ، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ط:٢، ١٤١٢ هـ، ١٩٩٢م، (٧).
(٤) **مقاصد الشريعة ومكارمها**، الفاسي، علال،دار الغرب الإسلامي، ط:٥، ١٩٩٣م، (٥).
(٥) ينظر: الغزالي: **جواهر القرآن**، (٢٣).

مقاصد القرآن، فقال: "وَمُعْظَمُ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ الْأَمْرُ بِاكْتِسَابِ الْمَصَالِحِ وَأَسْبَابِهَا، وَالزَّجْرُ عَنْ اكْتِسَابِ الْمَفَاسِدِ وَأَسْبَابِهَا"(١). وذكر الألوسي أن مقاصد القرآن الكريم لا تنحصر في الأمر والنهي بل تشمل أحوال المبدأ والمعاد، والتوحيد وتخصيص الله تعالى بالعبادة والأحكام الشرعية(٢).

أما في الدراسات المعاصرة فقد عرّف المنتار مقاصد القرآن بأنها: "مجموع المعاني والحكم والغايات العليا المنثورة في ثنايا السور، والآيات، والفواصل، والأجزاء، والأحزاب القرآنية، والتي تشكل مراد الله عز وجل من إنزاله القرآن الكريم على المكلفين في الدارين"(٣). وعرّفها بودوخة بأنها: «القضايا الأساسية والمحاور الكبرى التي دارت عليها سور القرآن الكريم وآياته، تعريفاً برسالة الإسلام، وتحقيقاً لمنهجه في هداية البشر»(٤). وعرّفها المخلافي والأطرش بأنها: «الأسرار والحكم والغايات التي نزل القرآن لأجل تحقيقها جلباً للمصالح ودفعاً للمفاسد، وهي واضحة في جميع القرآن أو معظمه»(٥).

ويلاحظ من خلال التعريفات السابقة الآتي:

١- لم يَرِد في دراسات المتقدمين تعريفٌ للمقاصد القرآنية.

٢- تأثُّر المتأخرين بتعريفهم للمقاصد القرآنية بتعريف مقاصد الشريعة.

٣- المقاصد القرآنية لا تقتصر على الأحكام، بل تشمل موضوعات القرآن المختلفة -في سوره، وآياته، ومقاطعه، وفواصله- وما تحويه من عقائد، وأخلاق، وترغيب، وترهيب، وأحكام، لذلك فالمقاصد القرآنية أشمل وأعم من مقاصد الشريعة من حيث الموضوعات المتعلقة بها، بينما مقاصد الشريعة أعم من حيث وسائل تحصيلها فهي لم تقتصر على القرآن وحده بل تشمل مصادر التشريع كلها(٦)، فمقاصد القرآن محلها القرآن الكريم، ومقاصد الشريعة قد تُطلب من القرآن أو السنة.

---

(١) العز بن عبد السلام: **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، (١/ ٨).

(٢) ينظر: الألوسي: **روح المعاني**، (١٥/ ٤٨٥).

(٣) المنتار: **الإدراك المقاصدي محدد من محددات تدبر القرآن الكريم**، (٧).

(٤) بودوخه: **جهود العلماء في استنباط مقاصد القرآن**، (٢٠٢).

(٥) المخلافي، والأطرش: **التفسير المقاصدي إشكالية التعريف والخصائص**، (١٣٤).

(٦) ينظر: أسعد: «**مقاصد قرآنية يناط بها التمكين الأسري**»، مجلة جامعة دمشق الاقتصادية والقانونية، (٤٨١).

٤- مقاصد القرآن تتسم بالوضوح في معظم القرآن، وتحتاج لمن يبرزها من المفسرين في المواطن التي لم تظهر بها. فقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] مقصدها واضح وهو تحقيق الهداية. بينما قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ [المائدة: ٣] لا يظهر مقصدها من خلال السياق، وتحتاج لفهم النص وتفسيره، من أجل بيان مقصدها.

ومن خلال ما سبق يمكن تعريف المقاصد القرآنية بأنها: العلل والحكم والغايات التي نزل القرآن الكريم من أجل تحقيقها بكليته، بسوره وبمقاطعه وآياته وفواصله، وما تحويه هذه الأجزاء من موضوعات في الأحكام والعقائد والأخلاق والقصص والترغيب والترهيب، وما يتحقق خلالها من جلب المصالح ودفع المفاسد للفرد وللأمة وللإنسانية.

المطلب الثاني

مفهوم التفسير المقاصدي للقرآن الكريم

يُعدّ التفسير المقاصدي من حيث المصطلح منهجاً جديداً من مناهج التفسير المعاصرة، وقد كان هذا النوع من التفسير حاضراً في كتب المفسرين المتقدمين، إلا أن المصطلح الذي عبروا فيه عن المقاصد كان مختلفاً، كالحكمة والغاية والمعنى. فعند الإمام الطبري رحمه الله استخدم مصطلح المعاني مرادفاً للمقاصد عند بيانه لمقاصد الزكاة قائلا: «إن الله جعل الصدقة في معنيين. أحدهما: سدُّ خَلَّة المسلمين، والآخر: معونة الإسلام وتقويته»[١]. فقوله: معنيين. أراد بهما مقصدين. وقد ظهر هذا المصطلح مع ظهور علم المقاصد الذي قعّد له الشاطبي في كتابه (الموافقات)، وإن كان قد سبقه في الحديث عن المقاصد الغزالي والجويني والعز بن عبد السلام، إلا أنهم لم يكن لديهم تعريفٌ للمصطلح، ثم كثر استخدام مصطلح المقاصد في التفاسير المعاصرة كتفسير المنار[٢]، والظلال[٣]، والتحرير والتنوير[٤]، إلا أننا لا نجد تعريفاً للتفسير المقاصدي في مؤلفاتهم، رغم اشتمالها على هذا النوع من التفسير.

ووجد الباحثان بعض المهتمين بعلم المقاصد قد أفردوا تعريفاً للتفسير المقاصدي للقرآن

(١) الطبري: **جامع البيان**، (١٤/ ٣١٦).
(٢) رضا: **تفسير المنار**، (١/ ٦٨).
(٣) ينظر: سيد قطب: **في ظلال القرآن**، (١/ ٥٩٢).
(٤) ابن عاشور: **التحرير والتنوير**، (١/ ٣٨).

الكريم وسنعرض بعضا منها على النحو الآتي:

أولاً: عرّفه الزهراني بأنه: «التفسير الذي يعتني بمقاصد الشريعة وكلياتها في القرآن الكريم، ويراعي علل الأحكام الشرعية المتعلقة بها مع سائر العلوم والأدوات الضرورية للتفسير»(١).

ثانياً: عرّفه أبو زيد بقوله: «لون من ألوان التفسير، يبحث في الكشف عن المعاني المعقولة والغايات المتنوعة التي يدور حولها القرآن الكريم كلياً أو جزئياً، مع بيان كيفية الإفادة منها في تحقيق مصلحة العباد»(٢).

ثالثاً: وعرفه المخلافي والأطرش بأنه: «ذلك النوع من التفسير الذي يهتم ببيان المقاصد التي تضمنها القرآن، وشُرِعت من أجلها أحكامه، ويكشف عن معاني الألفاظ مع التوسع في دلالاتها، مراعياً في ذلك قواعد التفسير الأخرى كالمأثور والسياق والمناسبات وغيرها»(٣).

ولا بد من بعض الملحوظات على التعريفات السابقة:

١- لا يوجد لدى المفسرين المعاصرين ولا المتقدمين تعريف واضح للتفسير المقاصدي، وإن اشتملت تفاسيرهم على هذا اللون من التفسير بتفاوت بين مكثر ومقلّ.

٢- التعريفات التي وقعت بين يدي الباحثَيْن لباحثين معاصرين في علم المقاصد، وقد اختلفوا في ضبط تعريف جامع للمصطلح .

٣- يظهر من هذه التعريفات مقدار التأثر بتعريف علماء الأصول لمقاصد الشريعة، فنجد جلّ التعريفات تركز على مقاصد الأحكام دون غيرها من موضوعات القرآن، والتي جاءت جميعها تحمل مقاصد وحكماً وغايات.

٤- التفسير المقاصدي يهدف إلى بيان العلّة، والحكمة، والغاية، لتحقيق مصلحة العباد.

٥- يلتقي التفسير المقاصدي مع كل ألوان التفسير سواء المأثور، أو الرأي، كالفقهي، والبياني، والموضوعي، وغيرها؛ للكشف عن مراد الله تعالى من التنزيل.

ويمكن بعد ذلك أن نعرِّف التفسير المقاصدي للقرآن الكريم على أنه: تفسير القرآن

(١) الزهراني: **التفسير المقاصدي تأصيل وتطبيق**، (٦٨).
(٢) أبو زيد: **نحو تفسير مقاصدي للقرآن الكريم رؤية تأسيسية**، (٤٣).
(٣) المخلافي، والأطرش: **التفسير المقاصدي إشكالية التعريف والخصائص**، (١٤٢).

الكريم ببيان العلل، والحِكَم، والغايات، والمعاني، سواءً كانت ظاهرة، أم تحتاج إلى استنباط.

المبحث الثاني

منهج الزمخشري في بيان المقاصد القرآنية في الكشاف

بالنظر إلى التعريف الاصطلاحي للتفسير المقاصدي للقرآن الكريم نجد أن جل التفاسير تعرضت للتفسير المقاصدي، ولكن بنسب متفاوتة بين مقل ومكثر، وغالب المكثرين من هذا اللون من التفسير هم من المتأخرين كصاحب المنار، والظلال، والتحرير والتنوير. وفي التفاسير المتقدمة نجد ملامح هذا اللون من التفسير، سيما في التفاسير التي تُصنَّف ضمن التفسير بالرأي، فنجد التفسير المقاصدي يلتقي مع كل أنواع التفسير، فهو بالمجمل يهدف إلى بيان المعنى والعلة والحكمة في آيات القرآن الكريم، من خلال إنعام النظر في الآيات، وإعمال الفكر فيها، وهذا الأمر يقوم على الاجتهاد، وهذا ما يقوم به المفسر بالرأي، فمن هنا نجد التقاطع بين تعريف التفسير وتعريف التفسير المقاصدي للقرآن الكريم، إلا أن المفسر المقاصدي لا يقف عند بيان المعاني والأحكام والأخلاق، بل يتعداه إلى العلل والحِكَم والغايات، وإبراز ذلك متفاوت لدى المفسرين.

وبالنظر في الكشاف لا نجد حديثاً عن التفسير المقاصدي من حيث المصطلح والتأصيل، إذ إن المصطلح ظهر متأخرا، لكننا نجد الجانب التطبيقي للتفسير المقاصدي لدى الزمخشري، فنجد أن إبراز المقاصد القرآنية من الآيات في تفسير الزمخشري يحتاج إلى جهد وبحث؛ لأن هذا اللون من التفسير متداخل إلى حد كبير في تفسيره البياني، والمأثور، والفقهي للآيات؛ ولأن هناك حالة من الانصهار بين كل ألوان التفسير في كشّافه، فالمقاصد لم تكن هي الغاية الأبرز لديه وإن كان يكشف عنها من خلال التفسير، كلون من ألوان التفسير بالرأي يحاول من خلاله إبراز المعنى والمراد من الآيات، وفي هذا المبحث سنبين منهج الزمخشري في الكشف عن المقاصد القرآنية من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول
بيان المقاصد القرآنية من خلال السياق

السياق في اللغة يدلّ على التتابع، ومنه انساقت الإبل أي تتابعت، والسياق نزع الروح. يقال: فلان في السياق أي في النزع(١).

وفي الاصطلاح: «تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية، لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود، دون انقطاع أو انفصال»(٢).

لقد اهتم علماء التفسير اهتماما بالغا بالسياق للكشف عن المعاني القرآنية، والترجيح بين الآراء المختلفة في التفسير، وتبرز أهمية السياق كذلك في الكشف عن المقصد القرآني، بل ربما يكون السياق في بعض المواطن هو الفيصل في تحديد المقاصد القرآنية، والزمخشري من المفسرين الذين راعوا السياق في بيان المقاصد في الآيات القرآنية، ومن أمثلة ذلك في الكشاف:

أولاً: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا﴾ [الإسراء:٤١] بيّن الزمخشري من خلال الآية أن المقصود بما صرّفه الله في القرآن وكرر ذكره هو إبطال إضافة البنات إلى الله، ودل على هذا المعنى سياق الآية السابقة: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء:٤٠]، والمقصد والحكمة من تصريف هذا المعنى وتكراره في مواضع من التنزيل، حتى يتعظوا ويعتبروا ويطمئنوا إلى ما يُحتج به عليهم، ولكن الحاصل أن هذا التصريف لم يزدهم إلا نفوراً من الحق(٣). فالزمخشري بيّن المعنى من خلال السياق، ثم وقف على المقصد، وهنا يتبيّن التصاق المقصد بالمعنى السياقي للآية، لأن بيان المعنى من خلال السياق يترتب عليه بيان المقصد القرآني في الآية، وهو تقرير عقيدة التوحيد، ونفي المعتقدات الباطلة التي كانت في تصورات الجاهلية. ولا شك أنّ ترسيخ العقيدة الصحيحة، والتعريف بالله عز وجل، يندرج تحت مقاصد القرآن العظيمة، لما يترتب على ذلك من إخراج الناس من مستنقع الشرك إلى رياض التوحيد؛ ليحقق لهم سعادة الدارين.

(١) ينظر: ابن منظور: **لسان العرب**، (١٠/١٦٦-١٦٧).
(٢) محمود: **نظرية السياق القرآني**، (١٥).
(٣) ينظر: الزمخشري: **الكشاف**، (٢/٦٦٩).

ثانيا: في قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] بيّن الزمخشري أن موقع هذه الآية بيان وتفسير وإزالة شبهة عن الآية التي قبلها: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فالمأتي في الآية الأولى، هو مكان الحرث الذي بينته الآية اللاحقة. والمقصد الأصيل من الإتيان، طلب النسل لا قضاء الشهوة، لذلك كان الأمر بعدم الإتيان إلا من المكان الذي يتعلق به تحقيق النسل(١). فبين الزمخشري من خلال سياق الآية السابق أن مقصد الإتيان الأصيل تحقيق النسل بدلالة الإتيان من حيث أمر الله في مكان الحرث، ومن مقاصد الآية التخفيف والتيسير على الناس كما يدل عليه قوله تعالى: (أنّى شئتم)؛ أي: من أي جهة شئتم ما دام المأتيّ واحداً، فلما كان الإتيان من مكان الحرث لم يحدد الشارع الكيفية دفعا للحرج والمشقة، وهذا من المقاصد القرآنية المهمة.

وفي المثالين السابقين بيّن الزمخشري المعنى ثم المقصد من خلال النظر في السياق.

ثالثا: في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]، وتقوى الله في مراقبة الألسن وحفظها عن الخوض في حديث زينب رضي الله عنها، حتى يتحقق المقصد من هذا الأمر وهو: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧١] ، وتحقيق هذا المقصد مرتبط بتحقيق النهي عما يؤذي النبي ﷺ. والأمر الإلهي بحفظ اللسان، ينسجم مع النهي عن الإيذاء الذي في قصة موسى عليه السلام في الآيات السابقة(٢)، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]. وفي هذا المثال بيّن الزمخشري المقصد القرآني في الآية من خلال ربط المعنى مع السياق العام في سورة الأحزاب، والتي كان من أهم موضوعاتها، الحديث عن زواج النبي ﷺ من زينب رضي الله عنها، وما تعرض له من إيذاء بسبب ذلك، وكذلك إيذاء بني إسرائيل لموسى عليه السلام، فبيّن أن المقصود بتقوى الله مراقبته في حفظ اللسان عما يؤذي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، حتى يتحقق مقصد التوفيق لإصلاح الأعمال ومغفرة الذنوب بعد الامتثال لأمر الله عز وجل وطاعته.

(١) ينظر: المرجع السابق، (١/ ٢٦٦).
(٢) ينظر: المرجع السابق، (٣/ ٥٦٤).

المطلب الثاني
بيان المقاصد القرآنية اعتماداً على الجانب البلاغي

يعد تفسير الكشاف ضمن الاتجاه البياني في التفسير؛ لما امتاز به الزمخشري من الإحاطة بعلوم البلاغة والبيان والإعراب والأدب، وكان له قدم راسخة في هذه العلوم، وقد أفاد الزمخشري من هذا الجانب الذي برع فيه، في الكشف عن مقاصد القرآن، فوظّف البلاغة القرآنية في لمحات تكشف عن التفسير المقاصدي للقرآن، وليس محل البحث استقراء جميع وجوه البيان عند الزمخشري ودوره في إبراز المقاصد من خلالها، بل سيكتفي الباحثان ببعض النماذج على النحو الآتي:

أولا: الالتفات

بيّن الزمخشري أن الالتفات من علم البيان وفيه انتقال من الغائب إلى المخاطب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم، وهذا الانتقال أفضل من إجراء الكلام على أسلوب واحد، لما فيه من تطرية لنشاط السامع، وإيقاظ للإصغاء عنده[1]. فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ [النور: ١٢] يتساءل صاحب الكشاف: لماذا لم يقل: لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيراً؟ ولمَ عدَل عن الخطاب إلى الغيبة؟ ويجيب على ذلك من ناحيتين. الأولى: أن هذا التفات قُصِد به المبالغة في التوبيخ لمن خاضوا في حادثة الإفك. والثانية: حتى يصرّح بلفظ الإيمان، دلالة على أن المشتركين بهذه الصفة، وهم المؤمنون يقتضي منهم هذا الاشتراك أن لا يصدّقوا عن بعضهم قول طاعن، وإذا ما سمع المؤمن قالة عن أخيه المؤمن، عليه حملها على حسن الظن، ويبرّئ ساحة أخيه، وهذا من الأدب الحسن[2]. وهذا الفهم يتناسب مع قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فهذه الأخوة تقتضي أن يكون المؤمنون كالجسد الواحد، وتقتضي عدم الخوض في أعراض المسلمين، بل لا بد من الذب والدفاع عنهم، ويكون الدفاع عنهم أوجب عندما يثير الشبهات حولهم المنافقون كما في حادثة الإفك، وهذا مقصد تربوي أصيل يكشف عنه صاحب الكشّاف.

(١) ينظر: المرجع السابق، (١/١٣-١٤).
(٢) ينظر: المرجع السابق، (٣/٢١٨).

ثانيا: التشبيه

ومعناه «العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حسّ أو عقل»[١]. والتشبيه يستدعي طرفين مشبهاً ومشبهاً به يشتركان من وجه ويفترقان من آخر، كأن يشتركا في الحقيقة ويختلفا في الصفة أو بالعكس[٢]. والتشبيه من الأساليب المشهورة في كلام العرب وورد في السياق القرآني لتحقيق مقاصد معينة سواء للتنفير من بعض الصفات، والأخلاق، والمواقف، والطباع، أو الحث على بعض الأخلاق والصفات. وقد أبرز الزمخشري بعض المقاصد من التشبيهات القرآنية، ويتبين ذلك من خلال المثال الآتي:

في قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠] قرن بين عبادة الأوثان وقول الزور، لأنّ الشرك من باب الزور، فالمشرك يزعم أنّ الوثن يستحق العبادة، فالآية تدعو إلى اجتناب عبادة الأوثان التي هي رأس الزور، واجتناب قول الزور كله لتماديه في القبح والسماجة. وسمّى الأوثان رجساً، والخمر والميسر والأزلام رجساً، على طريق التشبيه. والمقصد من ذلك كما يقول الزمخشري: «أنكم كما تنفرون بطباعكم عن الرجس وتجتنبونه، فعليكم أن تنفروا عن هذه الأشياء مثل تلك النفرة»[٣]، فبين الزمخشري أن المقصد من التشبيه هو التنفير من بعض المسلكيات الجاهلية.

ثالثاً: التقديم والتأخير

في تفسير قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ(٤)﴾ [الرحمن: ١-٤]، يقول الزمخشري: «عدّد الله عز وعلا آلاءه، فأراد أن يقدّم أوّل شيء ما هو أسبق قدما من ضروب آلائه وأصناف نعمائه، وهي نعمة الدين، فقدّم من نعمة الدين ما هو في أعلى مراتبها وأقصى مراقيها: وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه، لأنه أعظم وحي الله رتبة، وأعلاه منزلة، وأحسنه في أبواب الدين أثراً، وهو سنام الكتب السماوية ومصداقها والعيار عليها، وأخر ذكر خلق الإنسان عن ذكره، ثم أتبعه إياه: ليعلم أنه إنما خلقه للدين، وليحيط علما بوحيه وكتبه وما خلق الإنسان من أجله، وكأن الغرض في إنشائه كان مقدّماً

(١) الباقلاني: **إعجاز القرآن**، (١٨٦).
(٢) ينظر: السكاكي: **مفتاح العلوم**، (٣٣٢).
(٣) الزمخشري: **الكشاف**، (٣/ ١٥٤).

عليه وسابقاً له»[1].

ويتبين من كلام الزمخشري أن المقصد القرآني من تقديم ذكر القرآن، هو الدلالة على أن نعمة الدين من أعظم النعم التي أنعم الله بها علينا، فلا تساويها نعمة مهما عظمت. ومن ناحية أخرى بيّن أن المقصد من وجود الإنسان مرتبط بهذا الدين ليحيط بالوحي المنزل، ويسير به على هدى، وإلا فإنه يفقد مقصد وجوده المتمثل بالعبادة والطاعة والامتثال للأمر الإلهي من خلال فهم التنزيل.

المطلب الثالث

بيان المقاصد القرآنية بالاعتماد على التفسير بالمأثور

من منهج الزمخشري في الكشف عن التفسير المقاصدي للقرآن،العمل على إبراز المقصد من الآية القرآنية من خلال آيات أخرى، أو من خلال السنة الشريفة أو فهم السلف الصالح، ويتبين ذلك من خلال الأمثلة الآتية:

أولا: في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢] لم يكتف الزمخشري بالوقوف على بيان المعنى اللغوي أو المعنى الظاهر للآية في النهي عن رفع الصوت في حضرة النبي ﷺ، بل بين أنّ المراد من الآية مخاطبة النبي ﷺ بالقول اللين، كما تكون مخاطبة المهيب المعظم، تعزيراً وتوقيراً له ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩]، ونهي الله عز وجل عن رفع الصوت لا يُقصد به من يرفع صوته استهانة واستخفافا، واستكبارا؛ لأن ذلك من الكفر، بل المقصود من يرفع صوته بما لا يتناسب مع هيبة العظماء، وتوقير الكبراء، والنهي في الآية لا يتناول رفع الصوت على إطلاقه، وإنما رفع الصوت المؤذي للنبي ﷺ، فهناك رفع للصوت لا يؤذيه ﷺ كما في الحرب، أو مجادلة المعاندين، أوإرهاب العدو، كما في يوم حنين، عندما طلب النبي ﷺ من العباس رضي الله عنه أن يصرخ في الناس، وكان جهوري الصوت[2].

فالزمخشري بيّن المقصد من النهي وهو: توقير النبي ﷺ وتعظيمه، واستشهد بآية

(١) المرجع السابق، (٤/ ٤٤٣).

(٢) ينظر: الزمخشري: الكشاف، (٤/ ٣٥٢-٣٥٤). انظر: مسلم: **صحيح مسلم**، ح: ١٧٧٥، (٣/ ١٣٩٨).

قرآنية لذلك، ويرى أن الخطاب للمؤمنين دون الكافرين والمستكبرين، وأن النهي ليس على إطلاقه، فالمنهي عنه الصوت المؤذي للنبي ﷺ، واستدل على ذلك من سيرة النبي ﷺ يوم حنين.

ثانياً: في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] بين الزمخشري أن من مقاصد هذه الآية: النهي عن ترك الجهاد والغزو، وعدم تفضيل المال والأهل عليه، لما فيه من تقوية للعدو. واستدل الزمخشري على هذا المعنى من خلال سبب نزول الآية، فذكر رواية عن رجل من المهاجرين أنه «حمل على صفّ العدوّ فصاح به الناس: ألقى بيده إلى التهلكة. فقال أبو أيوب الأنصاري: نحن أعلم بهذه الآية، وإنما أنزلت فينا، صحبنا رسول اللهَّ صلى اللهَّ عليه وسلم فنصرناه، وشهدنا معه المشاهد، وآثرناه على أهالينا وأموالنا وأولادنا، فلما فشا الإسلام وكثر أهله ووضعت الحرب أوزارها، رجعنا إلى أهالينا وأولادنا وأموالنا نصلحها ونقيم فيها، فكانت التهلكة الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد»[(١)].

ثالثاً: في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] بين الزمخشري مقاصد الآية بعد أن بيّن معناها على النحو الآتي[(٢)]:

الثبات على طريق الحق، وإصلاح النفس، وعدم التحسر والتأسف على أهل الضلال والانشغال بما هم فيه من الفسق والفجور والمعاصي لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨].

١- الحفاظ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنّ تركهما مع القدرة عليهما ليس من الهداية، وإنما هو من الضلال الذي ذكرته الآية، وبين أن في الآية تسلية لمن يأمر وينهى فلا يقبل منه، من خلال رواية عن ابن مسعود أنها قرئت عنده فقال: إن هذا ليس بزمانها إنها اليوم مقبولة. ولكن يوشك أن يأتي زمان تأمرون فلا يقبل منكم، فحينئذ عليكم أنفسكم.

فالمقصد من الآية إصلاح النفس وعدم التحسر والانشغال بأهل الضلال، والحفاظ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفيها تسلية لمن يدعو الناس فلا يُستجاب له، وهذا حثٌّ

(١) المرجع السابق، (١/٢٣٧). انظر: **سنن أبي داود**، ح: ٢٥١٢، (٣/١٢). قال عنه الألباني: صحيح. الواحدي: **أسباب نزول القرآن**، (٦٠).

(٢) ينظر: الزمخشري: الكشاف، (١/٦٨٥-٦٨٦).

على الإيجابية وعدم اليأس، وبيّن هذه المعاني من خلال القرآن الكريم، وفهم السلف رضوان الله عليهم.

المطلب الرابع
بيان المقاصد القرآنية من خلال توجيه القراءات

الناظر في تفسير الزمخشري يجد اهتمامه البالغ بالقراءات القرآنية سواء المتواترة منها والشاذة وتوجيهها بلاغياً ونحوياً، والمفاضلة بينها، وفي هذا المطلب سيعرض الباحثان لنماذج يتبين من خلالها كشف الزمخشري عن المقصد القرآني من خلال التوجيه التفسيري للقراءات على النحو الآتي:

في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦] بيّن الزمخشري أن الآية على قراءة (وَأَرْجُلَكُمْ) بالنصب دلّت على وجوب الغسل، ثم يتساءل عن قراءة الجر (وَأَرْجُلِكُمْ) ودخولها في حكم المسح، وأجاب عن ذلك بأن "الأرجل من بين الأعضاء الثلاثة المغسولة، تغسل بصب الماء عليها، فكانت مظنة للإسراف المذموم المنهي عنه، فعطفت على الثالث الممسوح لا لتمسح، ولكن لينبه على وجوب الاقتصاد في صب الماء عليها"(١). فكان المقصد من عطفها على الأعضاء الممسوحة كما يرى الزمخشري ليس ترك الغسل، وإنما الاقتصاد في استخدام الماء.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٩] بين الزمخشري أنّ في قراءة (وَلا تُسْئَلُ) تسلية لقلب النبي ﷺ، حيث كان يغتم ويضيق صدره لإصرار قومه على الكفر، والاهتمام بهم لعظم ما وقعوا فيه من العذاب، فجاءت الآية لتبين للنبي عليه السلام، أنه مرسل ليبشر وينذر، ولا يسأله الله عن إيمانهم من عدمه، بعد أن بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة. وعلى قراءة (ولا تَسأل) نهي للنبي ﷺ عن السؤال عن أحوال الكفرة(٢)، فالمقصد من القراءة الأولى تسلية قلب النبي ﷺ والدعاة من بعده أن لا يحزنوا على عناد أهل الكفر بعد أن أدوا رسالة الله لهم، وفي القراءة الثانية بيان لعظم ما

(١) الزمخشري: **الكشاف**، (١/ ٦١٠-٦١١).
(٢) ينظر: المرجع السابق، (١/ ١٨٢).

وقعوا فيه من العقوبة، وتحمل تهديدا ووعيداً لمن رفضوا دعوة الله عز وجل، فلا تسأل عنهم لسوء حالهم.

المبحث الثالث

ملامح التفسير المقاصدي عند الزمخشري في الكشاف

المطلب الأول

تنوع المصطلح الذي عبّر به عن المقاصد القرآنية

التفسير المقاصدي لم يكن معروفاً لدى الأولين بهذا المصطلح، وإن كان من حيث المضمون حاضراً في تفاسيرهم، وقد استخدم الزمخشري مصطلحات مختلفة للتعبير عن مقاصد القرآن الكريم، وغالباً ما رافق هذه المصطلحات أسلوب الفنقلة[1]، وسنورد في هذا المطلب مجموعة من المصطلحات التي استخدمها لبيان المقاصد:

أولاً: القصد

عند تفسير الزمخشري لقوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللهِّ وَاللهُّ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] بيّن المقصد من تعريف الفقراء في الآية بقوله: «فإن قلت: لم عرّف الفقراء؟ قلت: قصد بذلك أن يريهم أنهم لشدة افتقارهم إليه هم جنس الفقراء، وإن كان الخلائق كلهم مفتقرين إليه من الناس وغيرهم، لأن الفقر مما يتبع الضعف، وكلما كان الفقير أضعف كان أفقر، وقد شهد الله سبحانه على الإنسان بالضعف في قوله: (وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً) وقال سبحانه وتعالى: (اللهُّ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ) ولو نكر لكان المعنى أنتم بعض الفقراء»[2]. فعبّر الزمخشري عن المقصد بكلمة (قصد)، وبيّن أنّ المقصد من تعريف (الفقراء) بيان شدّة افتقار الخلائق جميعاً إلى الله تعالى.

ثانياً: المعنى

عبر الزمخشري في بعض الآيات عن المقصد القرآني بلفظ (المعنى)، كما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ما أَفاءَ اللهُّ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى

(١) أسلوب كثر استخدامه في تفسير الزمخشري وغالبا ما يأتي بصيغة سؤال نحو: (فإن قلت :...؟. قلت: ...).

(٢) الزمخشري: **الكشاف**، (٣/٦٠٦).

وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر: ٧] فيرى الزمخشري أن المقصد من تقسيم الفيء بهذه الطريقة؛ حتى لا يتداوله الأغنياء دون الفقراء فيكون أثرة جاهلية، وفي هذا التوجيه نبذ لعادات الجاهلية الظالمة، وعبّر عن المقصد بلفظ المعنى حين قال: «والمعنى: كيلا يكون أخذه غلبة وأثرة جاهلية...، يعني: كيلا يكون الفيء شيئاً يتداوله الأغنياء بينهم ويتعاورونه، فلا يصيب الفقراء...، أو كيلا يكون شيئاً متعاوراً بينهم غير مخرج إلى الفقراء»[(١)].

ثالثاً: المراد

وفي بعض المواطن عبّر الزمخشري عن المقصد بلفظ (المراد)، كما في قوله تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتامى أَمْوالَهُمْ) [النساء: ٢] والمقصود بإيتاء اليتامى أي: أن لا يطمع في أموال الأطفال الأوصياء، وعند البلوغ يؤدونها غير منقوصة، أو يؤدونها لليتامى الذين وصلوا حد البلوغ دون تأخيرها عليهم. يقول الزمخشري: «إما أن يراد باليتامى الصغار، وبإتيانهم الأموال: أن لا يطمع فيها الأولياء والأوصياء وولاة السوء وقضاته، ويكفوا عنها أيديهم الخاطفة، حتى تأتي اليتامى إذا بلغوا سالمة غير محذوفة. وإمّا أن يراد الكبار... على أنّ فيه إشارة إلى أن لا يؤخر دفع أموالهم إليهم عن حد البلوغ، ولا يمطلوا إن أونس منهم الرشد، وأن يؤتوها قبل أن يزول عنهم اسم اليتامى والصغار»[(٢)].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦] فعبر عن المقصد في الآية بقوله: «والمراد: النهى عن أن يقول الرجل ما لا يعلم، وأن يعمل بما لا يعلم، ويدخل فيه النهي عن التقليد دخولاً ظاهراً، لأنه اتباع لما لا يعلم صحته من فساده»[(٣)]. وهذا مقصد مهم، فقد نعى القرآن الكريم على الذين يقلدون تقليداً أعمى، وكان من مقاصده ترسيخ المنهج العلمي في التفكير، من خلال الدعوة إلى النظر والتدبر والتفكر وإعمال العقل.

رابعاً: الفائدة

كما في تفسير الزمخشري لقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النَّاسِ ما وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ

(١) المرجع السابق، (٤/ ٥٠٢-٥٠٣).
(٢) المرجع السابق، (١/ ٤٦٤).
(٣) المرجع السابق، (٢/ ٦٦٦).

الَّتِي كانُوا عَلَيْها﴾ [البقرة: ١٤٢] فيبين المقصد من الإخبار بقولهم قبل وقوعه، بقوله: «فإن قلت: أيّ فائدة في الإخبار بقولهم قبل وقوعه؟ قلت: فائدته أنّ مفاجأة المكروه أشدّ، والعلم به قبل وقوعه أبعد من الاضطراب إذا وقع لما يتقدّمه من توطين النفس، وأنّ الجواب العتيد قبل الحاجة إليه أقطع للخصم وأرد لشغبه»[١]. فالزمخشري عبر عن المقصد من الإخبار بلفظ الفائدة، فتكون الفائدة من هذا الإخبار متحققة في ثلاثة أمور:

١- لئلا يُفاجئ النبي ﷺ بالمكروه، لأن مفاجأته أشد من العلم به مسبقاً.

٢- الإخبار به قبل وقوعه فيه دفع للاضطراب لتوطين النفس عليه.

٣- لأن الجواب على شبهات الخصم قبل الحاجة إليه أقطع لحجتهم وأرد لشغبهم.

وفي قوله تعالى: ﴿رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي لِلْإِيمانِ﴾ [آل عمران: ١٩٣] بين الزمخشري المقصد من الجمع بين (منادياً) و (ينادي) في هذه الآية بقوله: «فأيّ فائدة في الجمع بين المنادي وينادي؟ قلت: ذكر النداء مطلقاً ثم مقيداً بالإيمان، تفخيما لشأن المنادي، لأنه لا منادي أعظم من مناد ينادي للإيمان»[٢]. فكان المقصد تعظيم شأن الدعاة إلى الله وتفخيماً لمكانتهم.

خامساً: الغرض

كما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الأنفال: ٤٤] ففي تفسير هذه الآية، بيّن المقصد من تقليل المؤمنين في أعين الكفار بقوله: «فما الغرض في تقليل المؤمنين في أعينهم؟ قلت: قد قللهم في أعينهم قبل اللقاء، ثم كثرهم فيها بعده ليجرؤوا عليهم، قلة مبالاة بهم، ثم تفجؤهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا، وتفلّ شوكتهم حين يرون ما لم يكن في حسابهم وتقديرهم»[٣].

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] عبّر عن المقصد من إخبار الملائكة بلفظ (الغرض)، بقوله: «فإن قلت: لأي غرض أخبرهم بذلك؟

(١) المرجع السابق، (١/ ١٩٨).
(٢) المرجع السابق، (١/ ٤٥٥).
(٣) المرجع السابق، (٢/ ٢٢٥).

قلت: ليسألوا ذلك السؤال ويجابوا بما أجيبوا به فيعرفوا حكمته في استخلافهم قبل كونهم، صيانة لهم عن اعتراض الشبهة في وقت استخلافهم. وقيل: ليعلم عباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها، وعرضها على ثقاتهم ونصحائهم»[1].

سادساً: الحكمة

كما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]. فقد بيّن الحكمة التي من أجلها رتبنا الله شعوبا وقبائل وهي: أن يعرف بعضكم نسب بعض، فلا ننسب الشخص إلى غير آبائه، وأن لا تتفاخروا بالآباء والأجداد، وتدعوا التفاوت والتفاضل في الأنساب. ثم بين الخصلة التي بها يفضل الإنسان غيره ويكتسب الشرف والكرم وهي التقوى[2]. وفي ذلك مقصد قرآنيٌ نبيل، يتمثل في نبذ قيم الجاهلية، وإقرار لمبدأ المساواة بين بني البشر، وبيان لميزان التفاضل بين الناس، وهو التقوى.

سابعاً: الدلالة.

كما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠] فبين الزمخشري دلالة دخول من التي للتبعيض على البصر دون الفروج، وذلك لأن أمر النظر أوسع، وأمر الفرج مضيّق، فأباح النظر إلا ما استثني منه، وحظر الجماع إلا ما استثني منه[3]. وكذلك فإن من مقاصد استخدام التبعيض مع الأبصار، التخفيف والتيسير على المكلفين، ولو كان التكليف في حفظ البصر كحفظ الفروج لوقع الناس في المشقة والعنت.

المطلب الثاني

قصر عبارته الدالّة على المقصد واختصارها

غالبا ما تكون عبارات الزمخشري مقتضبة في بيان المقاصد، بعيداً عن الاستطراد والحشو، ومن أمثلة ذلك:

عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّباعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَداءٌ إِلَيْهِ

(١) المرجع السابق، (١/ ١٢٤).
(٢) ينظر: المرجع السابق، (٤/ ٣٧٥).
(٣) ينظر: المرجع السابق، (٣/ ٢٢٩).

بِإِحْسانٍ ذلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] يقول: «وخيرت هذه الأمّة بين الثلاث: القصاص والدية والعفو، توسعة عليهم وتيسيراً»[١]. فكان التخيير مراعاة لمقصد التخفيف والتيسير، فعبّر عن ذلك باختصار دون إطالة في البيان.

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥] بين الزمخشري أن المتصدق في القصاص، يكفّر الله سيئاته، والمقصد من ذلك الترغيب في العفو[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ﴾ [فاطر: ٣٢] والمقصد من هذا الترتيب «الإيذان بكثرة الفاسقين وغلبتهم، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم، والسابقون أقل من القليل»[٣].

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧]، يقول: «وفائدة زيادة غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ، على أنه يؤذن أنهم يعملون صالحا آخر غير الصالح الذي عملوه؟ قلت: فائدته زيادة التحسر على ما عملوه من غير الصالح مع الاعتراف به»[٤]. فكان المقصد من الزيادة التحسر والاعتراف بما اقترفوه من سيئات، وفي مشهد الآخرة لا ينفع الندم، وفي الآية حث على استغلال الحياة الدنيا، حيث دار العمل، قبل أن يأتي يوم لاينفع فيه إلا ما قدمت في حياتك الدنيا، فلا يفيدك تحسر واعتراف.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: ١٢] يقول الزمخشري: «لو اقتصر على قوله وَلا يَعْصِينَكَ فقد علم أن رسول الله ﷺ لا يأمر إلا بمعروف؟ قلت: نبه بذلك على أنّ طاعة المخلوق في معصية الخالق جديرة بغاية التوقي والاجتناب»[٥].

يتبين مما سبق قصر العبارة التي استخدمها الزمخشري في بيان المقصد القرآني.

(١) المرجع السابق، (١/ ٢٢٢).
(٢) ينظر: المرجع السابق، (١/ ٦٣٨).
(٣) المرجع السابق، (٣/ ٦١٣).
(٤) المرجع السابق، (٣/ ٦١٥).
(٥) المرجع السابق، (٤/ ٥٢٠).

المطلب الثالث

تنوع موضوعات الآيات التي أبرز فيها المقاصد القرآنية

تنوعت موضوعات الآيات القرآنية التي أظهر فيها الزمخشري التفسير المقاصدي، فلم يقتصر على آيات الأحكام، بل تعداها إلى آيات القصص، والأخلاق، والعقائد، وإن كانت في آيات الأحكام أكثر وضوحاً من غيرها، وسنبين ذلك في الأمثلة الآتية:

أولا: التفسير المقاصدي في آيات الأحكام

قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يَا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]، بينت الآية أن مقصد القصاص تحقيق الحياة، وبيّن الزمخشري كيف يتحقق مقصد الحياة من القصاص، فتشريع القصاص يُفضي إلى الحياة في حق من يريد أن يكون قاتلاً، لأنه إذا علم أنه سيُقتل ارتدع فبقي حيّا، ويفضي إلى الحياة في حق من يُراد جعله مقتولاً، فمن خاف القصاص ترك قتله فيبقى حياً، ويفضي إلى الحياة لغيرهما؛ لأنه انتفى القتل الذي يؤدي للتعصب والاقتتال، فيتجاوز القاتل والمقتول، وفي تطبيق حكم القصاص تحقيق للتسوية التي لا تتعدى القاتل إلى أهله بخلاف عادات الجاهلية[١].

وفي قوله تعالى:﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقاقَ بَيْنِهِما فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِها إِنْ يُرِيدا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُما إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾ [النساء: ٣٥] ففي الإصلاح بين الزوجين عند استحكام الخلاف، يوجهنا الله عز وجل للإصلاح من خلال حكمين من أهلها وأهله، ويبين الزمخشري المقصد من اختيار الحكمين من أهلهما «لأنّ الأقارب أعرف ببواطن الأحوال، وأطلب للصلاح، وإنما تسكن إليهم نفوس الزوجين، ويبرز إليهم ما في ضمائرهما من الحب والبغض وإرادة الصحبة والفرقة، وموجبات ذلك ومقتضياته، وما يزويانه عن الأجانب ولا يحبان أن يطلعوا عليه»[٢].

ثانياً: التفسير المقاصدي في آيات القصص

عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦] يبين الزمخشري أن معصية آدم عليه السلام لم تكن كبيرة

(١) ينظر: المرجع السابق، (٢٢٣/١).
(٢) المرجع السابق، (٥٠٨/١).

من الكبائر، وإنما هي معصية مغمورة في ميزان أعماله المليء بالصالحات، رغم ذلك جرى بسببها نزع اللباس والإخراج من الجنة والإهباط من السماء، وكل ذلك لتحقيق مقاصد مهمة تتمثل في بيان أهمية البعد عن الخطيئة، وعدم التهوين من شأنها وإن صَغُرَت، وأشار إلى ذلك بقوله: «تعظيما للخطيئة وتفظيعاً لشأنها وتهويلاً، ليكون ذلك لطفاً له ولذرّيته في اجتناب الخطايا واتقاء المآثم، والتنبيه على أنه أخرج من الجنة بخطيئة واحدة، فكيف يدخلها ذو خطايا جمة»[1].

ثالثاً: التفسير المقاصدي في آيات العقيدة

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٢-٥] بين الفائدة من الالتفات من لفظ الغيبة إلى الخطاب، بقوله: «لما ذكر الحقيق بالحمد، وأجرى عليه تلك الصفات العظام، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء، وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات، فقيل: إياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة، لا نعبد غيرك ولا نستعينه، ليكون الخطاب أدل على أنّ العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به»[2]. فبين من خلال الالتفات أن الله تعالى الذي اتصف بصفات الألوهية والربوبية والملك، وأصبح معلوما بهذه الصفات، هو وحده المستحق للعبادة والخضوع والاستعانة.

وفي قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١] بين من خلال الآية، أن الله تعالى هو المستحق للحمد والثناء، لأنه منعم بجميع النعم الدنيوية، ومحمود في الآخرة على نعم الثواب[3].

المطلب الرابع

تنوع الألفاظ والتراكيب التي استنبط المقصد القرآني منها

أولاً: بيان المقصد من خلال اللفظة القرآنية

يبين الزمخشري المقصد القرآني من خلال دلالة لفظة جاءت في السياق، إذ لا يمكن أن

(١) المرجع السابق، (١/ ١٣٠).
(٢) المرجع السابق، (١/ ١٤).
(٣) ينظر: المرجع السابق، (٣/ ٥٦٦).

يدل على المقصد أي لفظة أخرى مكانها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ [البقرة: ١٥٥] فيرى الزمخشري أن لفظة (شيء) في السياق، جاءت لتبين أن كل بلاء يصيب الإنسان فهناك ما هو أكثر منه، وفي ذلك تخفيف على المؤمنين، لتتجلى أمامهم رحمة الله تعالى، وأخبرهم بالبلاء قبل وقوعه ليوطنوا أنفسهم عليه[١]. فهذه الكلمة فيها من التسلية لقلوب المؤمنين أنه مهما أصابك من بلاء فهناك ما هو أعظم منه، وقد تجلت رحمة الله بصرفه عنك، وفيها إثارة لاستعداد المؤمن لصنوف الابتلاء، وما يترتب للصابرين عليه من الأجر العظيم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ﴾ [النساء: ٧٥]، فدلالة ذكر الولدان في الآية كما يرى الزمخشري: «تسجيلا بإفراط ظلمهم، حيث بلغ أذاهم الولدان غير المكلفين، إرغاماً لآبائهم وأمهاتهم ومبغضة لهم لمكانهم»[٢]. فالكافرون لا يرقبون في مؤمن إلّاً ولا ذمة ولا يراعون حرمة صغير ولا كبير، فأذاهم يمتد إلى كل شيء حتى للولدان رغم فرط ضعفهم.

ثانيا: بيان المقصد من خلال الجملة القرآنية

عند تفسير الزمخشري لقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٢- ٢٢٣] يقف عند هذه الجمل: (هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ)، (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ)، (أَنَّى شِئْتُمْ)مبيناً أنّ فيها كنايات لطيفة وتعريضات مستحسنة، فيها إشارة للمؤمنين أن يتعلموها ويتأدبوا بها ويتكلموا مثلها في محاوراتهم[٣]. فلا يكون كلام المسلمين فيما بينهم خادشاً للحياء، ومنافياً للقيم، وخارماً للمروءة، فاحشاً بذيئاً، بل على المسلم أن ينتقي أطايب الكلام كما ينتقي أطايب الثمر، وهذا مقصد تربوي من الآيات.

(١) ينظر: المرجع السابق، (١/ ٢٠٧).
(٢) المرجع السابق، (١/ ٥٣٤).
(٣) ينظر: المرجع السابق، (١/ ٢٦٦).

ثالثاً: بيان المقصد من خلال صيغة الجملة من حيث الأمر والنهي والنفي والاستفهام والإخبار

الجملة في القرآن الكريم تأتي بصيغ مختلفة، وقد كان الزمخشري يبين المقصد من الآية بناء على صيغة الجملة.

ففي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ماذا أُجِبْتُمْ قالُوا لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩] يبين الزمخشري المقصد من سؤالهم توبيخ قومهم، كما في سؤال الموؤودة توبيخاً للوائد، والهدف من إجابتهم في إحالة الأمر إلى الله تعالى رغم معرفتهم بإجابة قومهم، توبيخ أعدائهم، وإظهار للتشكي واللجوء إلى الله تعالى للانتقام من أعدائهم، وهذا أشد عليهم وأجلب لحسرتهم[١]. فبين الزمخشري في الآية المقصد من السؤال والإجابة.

وفي قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ منكم ولو تَواعَدْتُمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعادِ وَلكِنْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً﴾ [الأنفال: ٤٢] يذكر الزمخشري المقصد من الإخبار عن مراكز الفريقين بيان قوة العدو وشوكته وتكامل عدته وأخذه بأسباب الغلبة وضعف أمر المسلمين وأن غلبتهم في مثل هذه الحالة ليست إلا بتيسير الله وحوله وباهر قدرته، فالأرض التي نزل بها المشركون كان فيها الماء خلاف العدوة الدنيا التي نزلتم بها[٢].

ويبين الزمخشري المقصد من النهي عن سب الآلهة الباطلة كما في قوله تعالى: ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] والعلة في ذلك لما يترتب عليها من مفسدة، وهذا ينطبق على كل نهي عن أمر في أصله طاعة ويترتب عليه مفسدة[٣]، كشرب الخمر النهي عنه من أجلّ الطاعات، فإذا علمت أنه سيترتب على النهي زيادة شر انقلب إلى معصية.

ومن مقاصد الآية درس في فقه الأولويات فإذا ترتب على الأمر أو النهي مفسدة أكبر وجب تركهما فدفع المفسدة أولى من جلب المصلحة.

(١) ينظر: المرجع السابق، (١/ ٦٩٠).
(٢) ينظر: المرجع السابق، (٢/ ٢٢٣).
(٣) ينظر: المرجع السابق، (٢/ ٥٦).

الخاتمة

بعد البحث في التفسير المقاصدي عند الزمخشري خلص الباحثان إلى النتائج الآتية:

١- التفسير المقاصدي للقرآن الكريم من حيث المصطلح يعد لوناً معاصراً من ألوان التفسير، ومن حيث التطبيق فهو حاضر في جُلّ تفاسير المتقدمين والمتأخرين على تفاوت بينهم.

٢- يلتقي التفسير المقاصدي مع كل ألوان التفسير، وقد بدا ذلك واضحاً من خلال تفسير الزمخشري، الذي كشف عن المقاصد القرآنية من خلال البيان القرآني، ومن خلال آيات العقيدة، والتفسير بالمأثور، وآيات الأحكام، وغيرها.

٣- التفسير المقاصدي حاضر بوضوح في تفسير الكشاف، وإن كان الزمخشري لم يتناوله من حيث المصطلح.

٤- بيّن الزمخشري مقاصد القرآن الكريم من خلال السياق القرآني، وتوجيه القراءات، والتفسير بالمأثور، والجانب البلاغي، وعقيدته الاعتزالية.

٥- من سمات التفسير المقاصدي عند الزمخشري في الكشّاف، تنوّع المصطلح الذي عبّر فيه عن المقاصد، وقِصَر عباراته الدّالة على المقصد القرآني، وتنوّع الموضوعات التي أبرز فيها المقاصد القرآنية، وتنوع التراكيب التي استنبط منها المقاصد القرآنية.

التوصيات:

١- ضرورة الاهتمام -من قِبَل كليات الشريعة-، بهذا اللون من التفسير، من خلال تقديم مساقات لطلبة أصول الدين والتفسير في كافة المراحل.

٢- عمل دراسات متخصصة في البحث عن المقاصد القرآنية عند الزمخشري مثل (دور الإعجاز البلاغي في الكشف عن المقصد القرآني).

٣- جل الدراسات في التفسير المقاصدي تركز على آيات الأحكام، فلا بد للباحثين في التفسير من الكشف عن المقاصد القرآنية في القصص القرآني، وآيات العقيدة، والأخلاق، ضمن أبحاث متخصصة.

٤- الربط بين التفسير المقاصدي وألوان التفسير الأخرى كالتفسير الموضوعي، وعمل دراسات موضوعية مقاصدية، أو تربوية مقاصدية وهكذا.

٥- عمل أبحاث حول مدى تأثُّر المتأخرين وإفادتهم من المتقدمين فيما يتعلق بالكشف عن المقاصد القرآنية.

المصادر والمراجع

الآمدي، أبو الحسن علي. (د.ت). *الإحكام في أصول الأحكام*. بيروت: المكتب الإسلامي.

أسعد، علي. (٢٠١٠). مقاصد قرآنية يناط بها التمكين الأسري. *مجلة جامعة دمشق الاقتصادية والقانونية*، ٢٦ (٢)، ٤٥٩-٥٠٢.

الأطرش، رضوان جمال. (٢٠١١). الجذور التاريخية للتفسير المقاصدي للقرآن الكريم. *مجلة الإسلام في آسيا*. ٨(العدد الخاص). ١٨٥- ٢٢١.

الألوسي، شهاب الدين محمود. (١٤١٥هـ). *روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني*. دار الكتب العلمية.

الباقلاني، أبو بكر محمد. (٢٠١٣). *إعجاز القرآن*. مكتبة مصر.

بودوخه، مسعود. (٢٠١١، أبريل). *جهود العلماء في استنباط مقاصد القرآن* (ورقة). المؤتمر العلمي الأول للباحثين في القرآن الكريم وعلومه، فاس، المغرب.

أبو حيان، محمد بن يوسف. (١٤٢٠هـ). *البحر المحيط*. دار الفكر.

أبو داود، سليمان بن الأشعث. (د.ت). *سنن أبي داود*. المكتبة العصرية.

الذهبي، محمد حسين. (٢٠٠٣). *التفسير والمفسرون* (ط.٨). مكتبة وهبة.

الراضي، مومني. (٢٠١٥). التفسير المقاصدي قواعده وقضاياه. *مجلة الأحياء*، ٢٤ (٤٤). ٢٦٦-٢٨٥.

الراغب الأصفهانى، أبو القاسم الحسين بن محمد. (١٤١٢هـ). *المفردات في غريب القرآن*. دار القلم.

رشواني، سامر عبد الرحمن. (٢٠٠٠). الاتجاه المقاصدي في تفسير ابن عاشور. *مجلة المعهد العالمي للفكر الإسلامي*، ٦ (٢٣)، ٨١-١٠٧.

رضا، محمد رشيد. (١٩٩٠). *تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)*. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الريسوني، أحمد. (٢٠٠٠). *الاجتهاد: النص، الواقع، المصلحة*. دار الفكر.

الريسوني، أحمد. (١٩٩٢). *نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي* (ط.٢). الدار العالمية للكتاب الإسلامي.

الزَّبيدي، محمّد بن محمّد. (د.ت). *تاج العروس من جواهر القاموس*. دار الهداية.

الزُّرْقاني، محمد عبد العظيم. (د.ت). *مناهل العرفان في علوم القرآن* (ط.٢). مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

الزركشي، أبو عبد الله محمد. (١٩٥٧). *البرهان في علوم القرآن*. دار إحياء الكتب العربية.

الزمخشري. (١٤٠٧هـ). *الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل* (ط.٣). دار الكتاب العربي.

الزمخشري، أبو القاسم محمود. (١٩٩٨). *أساس البلاغة*. دار الكتب العلمية.

الزهراني، مشرف بن أحمد. (٢٠١٦). «التفسير المقاصدي: تأصيل وتطبيق. *مجلة الدراسات الإسلامية*، *٢٨* (١)، ٥٣-٩٧.

أبو زيد، وصفي عاشور. (٢٠١٧). نحو تفسير مقاصدي للقرآن الكريم رؤية تأسيسية. *وحدة الأمة*، *٥* (٩)، ٤٠-٨٩.

السكاكي، يوسف بن أبي بكر. (١٩٨٧). *مفتاح العلوم* (ط.٢). دار الكتب العلمية.

سيد قطب، إبراهيم حسين الشاذلي. (١٤١٢هـ). *في ظلال القرآن* (ط.١٧). دار الشروق.

الشاطبي، إبراهيم بن موسى. (١٩٩٧). *الموافقات*. دار ابن عفان.

الطبري، محمد بن جرير. (٢٠٠٠). *جامع البيان في تأويل القرآن*. مؤسسة الرسالة.

عباس، فضل حسن. (٢٠٠٥). *التفسير أساسياته واتجاهاته*. مكتبة دنديس.

العز بن عبد السلام، عز الدين عبد العزيز. (١٩٩١). *قواعد الأحكام في مصالح الأنام*. مكتبة الكليات الأزهرية.

الغزالي، أبو حامد محمد. (١٩٨٦). *جواهر القرآن* (ط.٢). دار إحياء العلوم.

الغزالي، أبو حامد محمد. (١٩٩٣) *المستصفى*. دار الكتب العلمية.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد. (١٩٧٩). *معجم مقاييس اللغة*. دار الفكر.

الفاسي، علال. (١٩٩٣). *مقاصد الشريعة ومكارمها* (ط.٥). دار الغرب الإسلامي.

الفيروزآبادى، مجد الدين أبو طاهر. (٢٠٠٥). *القاموس المحيط* (ط.٨). مؤسسة الرسالة.

الفيومي، أحمد بن محمد. (د.ت). *المصباح المنير في غريب الشرح الكبير*. المكتبة العلمية.

محمود، المثنى عبد الفتاح. (٢٠٠٨). *نظرية السياق القرآني دراسة تأصيلية دلالية نقدية*. دار وائل للنشر.

المخلافي، نشوان، والأطرش، رضوان. (٢٠١٣). التفسير المقاصدي إشكالية التعريف والخصائص. *قرآنيكا مجلة عالمية لبحوث القرآن مركز بحوث القرآن*، ٥ (٢)، ١٢٩–١٤٤.

مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج. (د.ت). *صحيح مسلم*. دار إحياء التراث العربي.

المنتار، محمد. (د.ت). *الإدراك المقاصدي محدد من محددات تدبر القرآن الكريم*.

ابن منظور، محمد بن مكرم. (١٤١٤هـ). *لسان العرب* (ط.٣). دار صادر.

ابن المنير، ناصر الدين أحمد. (د.ت). *الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال*.

النيسابوري، أبو الحسن علي. (١٤١١هـ). *أسباب نزول القرآن*. دار الكتب العلمية.

JOURNAL OF SHARIA AND ISLAMIC STUDIES

A refereed Academic Quarterly, Published by the Academic Publication Council - University of Kuwait

Al-tafsir al-Maqsidi of al-Zamakhshari in Tafsir Al-Kashaf

Prof. Odeh Abdullah
An-Najah National University, Palestine

Talal Awad ALLAH Abo Asbah
Researcher

Academic
Publication Council

جامعة الكويت
KUWAIT UNIVERSITY

ISSN: 1029-8908

Volume 39- Issue No.136

shaaban: 1445 A.H. Mar, 2024